دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

| | |
|---|---|
| العنوان: | طبيعة الدرس اللغوي |
| المصدر: | اللغة العربية -الجزائر |
| المؤلف الرئيسي: | مداوس، زينة |
| المجلد/العدد: | ع5 |
| محكمة: | نعم |
| التاريخ الميلادي: | 2001 |
| الصفحات: | 214 - 229 |
| رقم MD: | 794402 |
| نوع المحتوى: | بحوث ومقالات |
| قواعد المعلومات: | AraBase |
| مواضيع: | الدراسات اللغوية، اللغة العربية، اللغويون العرب، النحو العربي |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/794402 |

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

# طبيعة الدرس اللغوي.

الأستاذة: زينة مداوس

لقد عرف منذ القديم شغف الإنسان بلغته وتفاخر أبناء العرب بفصاحتهم وبلاغتهم، وكان الشعر العربي وسيلتهم في ذلك؛ إذ كان الناس في كل مناسبة، خاصة في تلك الأسواق الأدبية. وكانوا إلى جانب الشعر يذودون بالأمثل والحكم وكان كل هذا في زمن لم يكن فيه المجتمع العربي في حاجة إلى دراسة لغته؛ لأنه كل يمارسها سليمة سالمة عن سليقة، وكان يدرك ما تجعله من سرّ بليغ ذي بيان؛ هذا البيان الذي ازداد جلاء مع حمل اللّغة لكتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين بمجيء الدين الإسلامي وبداية انتشاره بدا أنّ أمراً ما قد طرأ على اللغة العربية إفراداً وتركيباً وخاصة انحراف بعض الألسنة عن الأداء اللغوي السليم؛ بسبب دخول الأعاجم في الإسلام واختلاط لغاتهم باللّغة العربية فنتجت لغة مزيج من لغتين أو أكثر وبدأت العربية تبتعد عن فصاحتها، إذ كانت هذه الأخيرة جديدة على الأعاجم الذين رغبوا في تعلمها ليتحقّق لهم الاندماج في المجتمع الإسلامي ويتسنّى لهم فهم الدين الجديد

وطبيعي أن كانت ذلك؛ ظهور انحراف لغوي على ألسنة بعض العرب أيضاً خاصة أبناء القبائل المتاخمة للبلاد الأعجمية.

وماذا يقصد بالانحراف اللغوي؟ إنّه ذاك الخروج عن نهج العرب في كلامها إفراداً وتركيباً، وهو ما يُعرف بمصطلح (اللحن) وقد عّده الرسول ضلالاً وتعدّدت مظاهر اللحن في اللغة لتشمل الصوت واللفظ المفرد والخطأ في القاعدة النحوية .. فانزعج مظاهر الحسّ اللغوي العربي من ذلك، وحرّكت الغيرة على لغة القرآن أصحاب الفكر وانطلقوا يسعون إلى إيجاد وسيلة وقائية تصون لهم لغتهم التي زاد تعلقهم بها بعد أن صارت وعاء يجوي كلام الله.

وكان لا بدّ من إيقاف ظاهرة اللحن الذي خيف أن بعمّ الألسنة ، فجاءت الدراسة اللغوية التي عملت على تفادي ما يمكن تفاديه آنذاك.

نشأة الدرس اللغوي العربي: لقد كان ظهور اللحن دافعاً قويا بالإضافة إلى عوامل أخرى — للانطلاق في نشاطات وبحوث لغوية عديدة ومتنوعة "فقد تقدم الكفاة من أهل عصمتها ينتهجون إليها السبيل ويقيمون عليها الدليل"[1] بغية صيانة هذه اللّغة والإبقاء على كمالها وسلامتها وتماسك عناصرها.

ومن عوامل نشأة الدرس اللغوي هو مجيء القرآن معجزا، وتعلّقت به النفوس أيّما تعلق، خاصة وأنّ فيه شرحاً وتوضيحاً لآداب وسلوك المسلم. ولذلك "مست الحاجة إلى تفسيره تفسيراً لغوياً"[2]. واستجابة لهذا المطلب إلى احتيج إلى عالم باللغة يكون وسيلة لفهم أعمق لبنى وتراكيب النص القرآني من جهة. ووقف انتشار اللحن من جهة أخرى والدي الإسلامي - كما نعلم - رسالة حضارية راقية دفعت بأصحابه إلى النهوض بها بين الأمم المتحضرة من فرس ويونان، وإلى نشرها على أوسع نطاق لذلك جعلوا محتوى النص القرآني نوراً

---

[1]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب. بيروت: دار الكتاب العربي. ج I ص: 322

[2]- عبد الحميد الشلقاني، رواية اللّغة. القاهرة; دار المعارف ط ص 58.

لهم، ومحور جهودهم الثقافي الذي برز في علوم لغوية مختلفة وكلها علوم أخذت منطلقها من دراسة النصّ القرآني، وعملت على توطين قيمه في نفوس المسلمين عرباً وأعاجم؛ الذين آخى الإسلام بينهم فصاروا أمة واحدة. ولكن السياسة

الأموية قلّبت الأوضاع، وأقامت ملكاً عصبياً، وأنشأت دولة عربية أعرابية فظهرت التفرقة بين المسلمين؛ العربي يتمتّع بالوظائف والولاء. واللّغة العربية عدة في يده يسيّر بها أمور الحكم، والأعجمي محروم من كل ذلك، خاصة وظائف الإمامة والقضاء. فكان هذا سبباً مباشراً في تيقظ النزعة القومية في النفوس. ورأى الموالي أنّ خير وسيلة تحقق لهم الاندماج الاجتماعي والمنزلة المحترمة هي تعلم اللّغة العربية والتفقّه فيها. وبذلك أنتخ الأعاجم بحوثا لغوية ثرية، ودفعوا الدراسة اللغوية خطوات إلى الأمام.

ونلاحظ أقه مهما تفرّعت عوامل نشأة الدرس اللغوي فهي تصب كلها في مصب واحد؛ هو السعي إلى الإحاطة العلمية بالنص القرآني والحيلولة دون أن يمسّه أي تغيير أو انحراف.

بدايات الدرس اللغوي العربي:

أ - نقط الإعراب والإعجام: تمثلت أولى المجهودات اللغوية في محاولة ضبط النص القرآني بالحركات الإعرابية، وقد تصدّى لهذه المهمّة أبو الأسود ا لدؤلي ت69هـ ولكن إنجازه لم يكن كافياً، إذ ظهرت مشكلة الحروف المتشابهة خطأً وخيف أن يلتبس الأمر على القارئ ى فقام نصر بن عاصم ت89هـ بالتصدّي لها بوضعه نقط الإعجام زمن ولاية الحجاج بن يوسف ت95هـ على العراق. وبهذين العملين أمكن تجنّب الوقوع في الخلط أثناء القراءة بين الحروف. كما قام الخليل بن أحمد ت75 هـ بعد زمن بتطوير نقط الإعراب؛ مستبدلا النُقط بعلامات أكثر وضوحاً وأكثر دلالة على الإعراب. وهكذا كان عمل هؤلاء إرهاصة أولى في مجال الدرس اللغوي العربي، وجاء بعدهم من تناول فروعا أخرى من الدرس.

ب – النحو: من نتائج الفتح الإسلامي، نشوء مجتمع جديد هو مزيج من أمم مختلفة هذا الامتزاج الاجتماعي أدى إلى ظهور الفساد اللغوي على الألسنة، وشكل هاجساً أقلق الغيورين على لغة التنزيل التي كانت مفتاحا لفهم القرآن الكريم وتشريعات الدين الجديد وكانت ثمرة هذا القلق نشأة علم النحو؛ الذي تجمع معظم الروايات على أن أبا الأسود الدؤلي هو من قدّم فيه الخطوة الأولى؛ حيث إنّه كان ينزعج من سماع من يقرؤون القرن ويخطئون فيه مما يؤدي إلى فساد المعنى كقراءة قوله تعالى آذان من الله ورسولا إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوبه التوبة 3 وكأنّها معطوفة على المشركين، وفي ذلك انحراف عن المعنى المقصود. وجاء بعد أبي الأسود تلاميذه ساروا على نهجه وهم: عنبسة الفيل، ميمون الأقرع، نصر بن عاصم. ومن هؤلاء تسلّم نحويو البصرة مهمة الدراسة النحوية المتخصصة معتمدين في ذلك على كلام ا لعرب الخلّص.

الرواية اللغوية: الرواية لغة: هي الاستقاء والإتيان بالماء ، ثم دخلت ميدان النقل الشفوي وأطلقت على أخذ الشعر أو الحديث[3] ، ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على عملية جمع المادة اللغوية من أفواه أصحابها. وقد أخذت الرواية اللغوية في الدرس العربي منحنيين: أحدهما أخذ اللّغة من المقيمين في البلد أو الوافدين من الأعراب، وثانيهما رحلة اللّغة إلى البوادي طلبا للغة من أصحاب السليقة.

الأخذ عن الأعراب: امتازت البصرة بإحدى الأسواق التي يجتمع فيها أصحاب التجارة، وتعمره حلقات الأدب؛ تلك هي سوق المربد التي يؤمها اللغويون رغبة في التقاط

كلام الوافدين إليها من الأعراب، بل كانوا يعمدون إلى أساليب وأسئلة يحملونهم بها على الاستزادة في الكلام. وكان أبو زيد الأنصاري ت216هـ يلتقط ممّن عُرف بالإلحاح في السؤال، ويحكي ذلك بقوله: " قلت لأحدهم: ما ا لمتكأكيء؟ قال: المتأزف. قلت: وما المتأزف؟ قال: المحنبطي" [4]. وكان الأصمعي ت215هـ يلتقط اللفظ الغريب ويقيّده في ألواحه أو راحته، حتى اشتهر أمره بالغريب، وذكر ذلك قائلاً "جئت إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: من أين جئت يا

---

[3]- ينظر: محمد حسين آل ياسين، الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ط1 . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة 1980م، ص 65، ورواية اللّغة، ص 37.

[4]- عبد الحميد الشلقاني، رواية اللّغة، ص 71.

أصمعي؟ قلت: من المربد، قال: هاتِ ما معك، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها فأخذ يعد قائلا: شمرت في الغريب يا أصمعي[5] .

الرحلة إلى البادية: في مبدإ الأمر كانت المادة اللغوية تأتي إلى اللغويين دون عناء في الوقت الذي لم تتنام ظاهرة الاختلاط، ولما كثر الاختلاط قلت الثقة في المتعاطين للغة، ومن ذلك اتّجه سعي جمّاع اللّغة إلى البادية ليشافهوا الأعراب ويأخذوا كلامهم الفصيح؛ الذي هو ما كثر استعماله في ألسنة العرب، ودار في أكثر لغاتهم[6] . ولم تكن الرحلة لتتّجه حيثما اتّفق، ولا أن تمتد عبر الزمان مطلقاً، بل عمل روادها على تقييدها زمانياً ومكانياً حرصاً منهم على التمّسك بما ثبت صحته في اللّغة العربية فقط وإبعاد كل ما ليس من صميم اللّغة الفصيحة.

بمن احتجّ اللغويون؟ الاحتجاج: هو الأخذ بقاعدة أو كلمة أو تركيب ثبتت صحته ونسبته إلى ناطق فصيح ما زال على السليقة[7] ولهذا ا لغرض حددّت قبائل بعينها؛ إذ رأى المتحرون أن أصحابها ما زللوا يتداولون لغة سليقية صافية، أخذت اللّغة من القبائل

المتحرون أنّ أصحابها مازالوا بتداولون لغة سليقية صافية، أخذت اللّغة من القبائل العربية الواقعة وسط الجزيرة العربية, المتميزة بالبداوة "لأن البداة قد عُرف عنهم التمسك بلغاتهم وفد يدعونها إلى غيرها"[8]. والقبائل التي أخذت عنها اللّغة ليست تلك القبائل التي تداولتها الكتب, وذكرت بأنها ست قبائل فقط؛ لأن المدونة اللغوية لا

---

[5]- عبد الحميد الشلقاني، رواية اللّغة، ص 70.

[6]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص 131.

[7]- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، ط1. سوريا: ، دار الفكر، ص 17.

[8]- عبد الله بن حمد الختران مراحل تطور الدرس النحوي. القاهرة: دار العرفة الجامعية بالاسكندرية 399ا، ص

- 167.

تؤيّد هذا، لاحتوائها على أشعار قبائل عديدة. كما أننا لم نصادف لغوياً يعلن بأن اللّغة يجب ألا تؤخذ إلا من قيس وتميم وأسد وكنانة وبعض طيء وهذيل ط ولكن ما في الأمر هو أنّ المتحرين وضعوا شروطا معيّنة إن توفرت أخذ بتلك اللّغة وإلا فلا يؤخذ بها.

وقد كان لغويو البصرة أكثر التزاماً وتمسكاً بتلك الشروط من الكوفيين؛ الذين نقلوا الشاذ وضمنّوه كتبهم. أما التحديد ا لزماني٠ فقد حدد بنهاية القرن الثاني للهجرة بالنسبة إلى الهجرة بالنسبة إلى الخضر، والقرن الرابع بالنسبة إلى البادية.

وتمثّلت مصادر الاحتجاج في : الشعر العربي؛ هذا الشعر الذي حُددت طبقات شعرائه في الجاهليين. والمخضرمين والإسلاميين، والمحدثين، فأخذوا بأشعار الطبقتين ونظر للطبقة الثالثة بتحفظ. واستبعدوا الطبقة الرابعة. ويضاف إلى هذا القرن الكريم بمختلف رواياته. وأما الحديث الشريف فإنه يكاد يجمع على عدم الاحتجاج به لأنه مروي بالمعنى. ١اللهمّ أن بعضهم خالف هذه القاعدة.

رُواد الرحلة إلى البادية: يعد أبو عمرو بن العلاء ت154ف من أوائل الذين شدوا الرحال إلى البادية. يشافه الأعراب ويستمع إليهم، وكان يدقق كل ما يتلقاه منهم؛ إذ

يقول: "لقيت أعرابياً بمكة فقلت له: ممن أنت؟ قال أسدي. قلت: ومن أنهم؟ قال: نهدي قلت: من أي البلاد قال: من عمان، قلت: صف لي أرضك. قال: سيف أفيح وفضاء صحصح. وجبل صردح ورمل أصبح، قلت: فما بالك؟ قال: النخل قلت: فأين أنت عن الإبل؟ قال: النخل حملها غذاء وسعفها ضياء. وجذعها بناء. وكربها صلا. وليفها رشاء، وخوصها وعاء. وقرؤها إناء"[9]. نلاحظ في هذا النص كيفية السؤال الذي ارتضاه المتحري، وكيف دقّق مع الأعرابي ليعرف من أي المناطق وبالضبط، وكل هذا له دلالته لدى المتحري، وهو معرفة فروع القبائل بدقة. كما نلاحظ أنّه طلب منه أن يصف له أرضه،

---

[9]- عبد الحميد الشلفاني. رواية ص 81.

فالسؤال يبدو قصيراً، لكنّه يحوي جزئيات تزوّد المتحري برصيد لغوي في وصف أراضي الصحراء، وقد أجاب الورد بأوصاف دقيقة لأرضه، فعرج به المتحري إلى سؤال آخر عمّا يكسب فلما رآه أجاب بلفظ واحد: النخل، أتبع ذلك بسؤال إن كان ممّن يسكون الإبل ليستدرجه للحديث عن ذلك، فعاد الرجل للحديث عن النخل، ذاكرا كل جزء في النخلة واستعماله ففيها غذاء الإنسان والحيوان. ومنها بعض الأدوات 'التي يستعملها 'الإنسان في حياته العامة وهكذا استطاع المتحري بسؤالين أو ثلاثة أن يجمع من المورد ألفاظاً في وصف الأرض، وأخرى في وصف النخيل ومكوّناته واستعمالاته.

كما عرف الأصمعي بكثرة تجواله وتنقله بين البوادي، ولم يكن هذان الرجلان وحدهما بالرحلة إلى البادية، أصبح لهذا النشاط العلمي رجال كثيرون منهم من سبق الأصمعي أمثال الخليل أحمد بن أحمد ويونس بن حبيب ت182 هـ والنضر بن شميل

204هـ وأبو عبيدة ت 210 هـ، ثمّ تأتى طبقة أخرى وعلى رأسها أبو حاتم السجستاني ت255هـ والرياشي ت 257 هـ، وكان عملهم جليلاً؛ قدموا فيه إنتاجاً لغوياً غزيراً رغم ما تفرد به أبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو زيد الأنصاري وعبد الملك بن قريب الأصمعي، وهم من علماء البصرة. وتابعهم علماء الكوفة مثل القرّاء والمفضل الضبي وهكذا استمرت الرحلة إلى البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجري، وقد قيّدت العملية بشروط ومميزات تخص موردي اللّغة وآخذيها، أقفل باب التحري اللغوي عند ذلك.

مميزات أخذ اللّغة: سبق القول إنّ مهمّة جمع اللّغة لم تكن ليقوم بها أي شخص بل تصدّى لها من كانوا على جانب كبير من العلم والمعرفة اللغوية، ويكفي أن نعلم أن أبا عمرو بن العلاء الذي قاد التحريات اللغوية كان من المسيطرين على الحركة العلمية في عصره وأنّه واضع منهج الاستقراء. وقد تميّز تلاميذه (أبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري والأصمعي) بميزات علمية جعلتهم أهلا لأن يكونوا جمّاع

ودارسي اللّغة إذ "إنّ" أبا عبيده كان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأجمعهم لعلومهم. أما أبو زيد الأنصاري فقد وصف بأنّه أحفظ الناس وأنّه أكثرهم أخذا عن البادية، وقد كان من رواد الحديث ثقة مأموناً، وكذلك حاله في اللّغة وأما الأصمعي فقد شهد له معاصروه بأنّه أخضر جواباً وأتقن لما يحفظ، وممّا فاق به الأصمعي زملاءه هو قوة الحافظة"[10]. ويمكن تلخيص أهم مميزات جامع اللّغة في حسن السمع المرهف لما يتلقى من ألفاظ وتراكيب قوة الذاكرة، البراعة في إنطاق الأعراب ومحاورتهم القدرة على ربط الصلات بينه وبين المشافهين، رفع الكلفة...

مميزات المورد: تحرزّ اللغويون في اختيار قبائل بعينها وثقوا في أنّ فيها أعراباً فصحاء، وقد تشدّدوا في اختيار هؤلاء الذين يشافهونهم وخاصة لغويي البصرة؛ إذ كان المورد المثالي في نظرهم- هو الذي تميز بخشونة العيش؛ لأنّ ذلك يدلهم على أنّه ملازم باديته لم يبرحها، ولم يكن له اتّصال بمصدر من مصادر إفساد اللّغة، فيعلمون من ذلك أن لغته صافية. وكان البصريون يفاخرون لأخذهم اللّغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، في حين أخذها الكوفيون عن باعة الكواميخ وأكلة الشواريز. كما بحث المتحرون عمّن تميّز بالأمانة بين قومهم حتى لا يغيّروا في الكلام، حيث يروي كما سمع، وتصحب صفة الأمانة الصدق الذي يجعلهم حريصين على إسماع ما لديهم دون حذف أو إضافة. هذه الخصال التي تحراها اللغويون، لم تكن ميزة لجميع سكان البوادي، بل بعضهم فقط. ومن الذين اشتهروا في الميدان نذكر أبا خيرة العدوي وأبا مهدية الأعرابي، وأبا المنتجع وأبا سوار الغنوي... غيرأنّ الكوفيين كانوا مولعين بالنقل معتبرين كل ما نطق به العربي من العربية الفصيحة.

---

[10]- جامعة الجزائر(معهد العلوم اللسانية والصوتية) مجلة اللسانيات، الدراسات اللغوية عند العرب. الجزائر: 197، مج1، ص44.

طرق أخذ اللّغة: اختلفت الكيفيات التي كانت تتّخذ طريقاً لأخذ اللّغة ومنها: السؤال المباشر، والسؤال غير المباشر. كان جامع اللّغة يعتمد أحد هذه الأساليب ووفق ما يتطلبه المقام وموضوع الحديث، فيعمد أحياناً إلى الجلوس بين جماعة من المتحدثين حيث يندمج معهم ليبقى السلوك اللغوي طبيعياً، لا تكلف فيه إذا لا حظ أنّ أحداً يدون عليه، وقد يشارك التحري في الحديث ليحثهم على الاستزادة أو التنقل من موضوع إلى آخر, أو توجيه الحديث دونما شعور من الجالسين. أما السؤال المباشر فهو محاط ببعض المشاكل من خجل وارتباك وتردد، وربما حتى التصنع أو الكذب. ولهذا تلعب براعة التحري دورها في إبعاد هذه الحالات النفسية عن الموردين وجعل الحوار طبيعياً لتحصل العفوية والتلقائية. ومن كيفيات السؤال المباشر الاستفسار عن شيء ما بصيغة: كيف، أين، متى، صف، ومثال على ذلك استنطاق الأصمعي لأعرابي؟ إذ يقول: سألت أعرابياً: ما القرب؟ فقال: سير الليل لورد الغد. فقلت: فما الطلق؟ قال: سبر اليوم لورد الغيب[11] . وهكذا كان اللغويون في سعي دائم للتثبت ممّا يجمعون، وقد يكلفهم ذلك باهضاً.

جمع اللّغة والتأليف: عاد المتحرون اللغويون من رحلاتهم إلى البوادي برصيد لغوي هام اتخذه اللغويون والنحويون والدارسون مادة في تأليف معاجمهم وكتبهم وهناك ظهرت الإزهاصات الأولى للتأليف في الكتب العامة والخاصة والمعاجم، حيث ظهرت المادة الأولى في شكل كتب متخصصة مثل الكتاب أو كتب صغيرة مثل كتاب النخل. أو على شكل معاجم مثل معجم العين.

---

[11]- جامعة الجزائر(معهد العلوم اللسانية.الصوتية) مجلة للسانيات. الدراسات اللغوية عند العرب. الجزائر: 1971، مج1، ج1،ص48.

## البحث النحوي:

بعدما نفض المتحرون أيديهم من عملية جمع اللّغة معتمدين على الاستقراء، قام النحاة بتصنيف وتبويب تلك المادة في مباحث نحوية، متتبعين كل الحالات. فصنفوا المفردات والتراكيب بحسب ما يجمعها من مشابه في أبواب. وتظهر فائدة الاستقراء في تيسير استنباط أحكام اللّغة. وضبط قواعدها، واستخلاص أوضاع نظمها. وبيان العلاقة القائمة بين مفرداتها في تراكيبها المختلفة وسمات تلك المفردات وأنواعها وخصائص كل نوع منها، وما يطرأ عليها من تغيير بسبب المعاني المختلفة التي تعتورها في الكلام[12] . وعن طريق الاستقراء وُجد أنّ الكلام العربي مكوّن من مسند ومسند إليه. وأليه إما جملة فعلية أو اسمية، وثبت أنّ الجملة لا تخلو من الاسم أما الفعل فقد يُستغنى عنه. إلى غير ذلك ممّا أوصلهم إليه الاستقراء وفحص المادة المجموعة. كما يلاحظ أنّ جهد النحاة اتّجه إلى فحص تلك المدونة اللغوية التي أنتجها التحري، ليستخلصوا منها أساليب وقواعد الكلام العربي السليم. فجمعوا المتشابه منها ولاحظوا المتفارق ثم بدأوا بتجريد تلك القواعد واعتماد القياس.

والقياس في اصطلاح النحاة هو: "حمل غير المنقول من كلام العرب على المنقول إذا كان في معناه"[13](13). وهو من أهم ا لوسائل التي تسهل للإنسان إنشاء كلام لم يسمعه من قبل اعتمادا على كلام سبق سماعه لوجود تشابه بين ذاك المسموع من الكلام وهذا المنتج منه، وهو من وسائل تنمية اللّغة، ولذلك اعتمده النحاة أساساً في بحوثهم لأنّه يستحيل أن تكون اللّغة كلها تعليماً وسماعاً، بل هناك بُنى وقوالب معيّنة تُكتسب ثمّ يُعتمد عليها في إنشاء الكلام. ويختلف القياس

---

[12]- عدنان محمد ملمان "الاستقراء في النحو" مجلة المجمّع العلمي العراقي.العراق: الجزء 3. مجلد 35 ص 142.

[13]- د. عبد الفتاح الدجني، لغات العرب وأثرها في التوجيه النحوي. ط1. بيروت: مكتبة الفلاح 1981 ص 81

بين النحاة من بصريين وكوفيين؛ حيث أخذ البصريون أصولهم عن قبائل معيّنة مما جعل القياس عندهم يتحدد بشروط ضابطة في حين توسّع الكوفيون في الأخذ عن القبائل، وكثُر لديهم المنقول واتَسع مجال القياس عندهم حتى اضطرب.

عرف البصريون القياس النحوي مع عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ت117هـ الذي كان أول من بعج النحو ومدّ القياس، وقام الخليل وسيبويه ببناء صرح النحو العربي بركيزته الأساس وهي القياس. وتتلمذ علماء من الكوفة على البصريين لكنهم خالفوا منهجهم في الدراسة النحوية التي أنجزوها.

اختلاف أسس النحو بين البصرة والكوفة: نظراً إلى اختلاف خصائص البيئتين البصرية والكونية، والفئات البشرية في كل منهما، فقد ظهر الاختلاف في أسسهم اللغوية، وبقي ذلك الاختلاف معروفاً، ونشأت عنه خلافات نحوية كثيرة، وتجلى ذلك في:

- السماع: كانت المادة اللغوية التي جمعها البصريون ذات مصادر محددة ؛ من قبائل بعينها، متّفق على كونها مواطن فصاحة، وكذلك لم تؤخذ المادة من جميع أعراب تلك البوادي، بل ممّن توفرت فيهم شروط الورد ولهذا حين بدأ البصريون تصنيفهم النحوي، لم يكونوا يعتدون بالشواهد إلا ما تحققوا من قائليها، وكذلك إذا وثقوا من كثرته وتردده في كلام العرب في الوقت الذي لم تكن البيئة الكوفية صافية فقد التجأ علماؤها إلى رواية الشعر، فكثُر الموضوع والمصنوع. وينكر خلف الأحمر رواية الكوفيين قائلا أتيت الكوفة لأكتب الشعر فبخلوا على به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ثم مرضت فقلت لهم: ويلكم، أنا تائب إلى الله تعالى، هذا الشعر لي فلم يقبلوا مني وبقي

منسوباً إلى العرب"[14]. واشتهر حماد الراوية أيضاء بكذبه ووضعه الشعر، وكذلك أبو زيد الأنصاري عن المفضل الضبي الكوفي لأنّه اشتهر بالصدق.

وأما القياس فهو صيانة اللّغة من أي انحراف أو دخيل لغوي، لذلك وجدنا منهج البصريين يميل إلى التحري والاستقراء ووضع القواعد على الطرد، أما ما لم يطرد فكان يوضع فيما يسمى "يحفظ ولا يقاس عليه"، ولقد امتدح شوقي ضيف هذا المنهج فقال "على أنّه ينبغي أنّ نعرف أن المدرسة البصرية حين نحت الشواذ عن قواعدها لم تحذفها ولم تسقطها، بل أثبتتها، أو على الأقل أثبتت جمهورها، نافذة في كثير منها إلى تأويلها، حتى تنحي عن قواعدها ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أنّ خللاً يشوبها وحتى لا يغمض الوجه الصحيح في النطق على أوساط المتعلمين، إذ قد يظنون الشاذ صحيحاً... وهنا تتعرض الألسنة للبلبلة"[15] .

ولئن كنّا نذهب مع قول الدكتور شوقي ضيف في المبرر الذي قدّمه إلا أنّنا نرى أنّ تلك الشواهد التي اعتبرت شاذة، ربما كانت لها نظائر متعددة في لغة العرب، لكن المتحرين لم يصلوا إليها، أو ربما تعمدوا إهمالها لسبب أو لآخر، ولذلك لم تصلنا تلك الشواهد ولم تحظ بالعناية الكافية في الدراسة النحوية. وعلى نقيض البصرة، نجد الكوفة تميزت بالإفراط في جمع كل ما يصادفها من لغة، وشملت رحلاتهم لغات العرب بلهجات قبائلها وبما لحقها من اختلال وفساد، فقد سمع الكوفيون كثيراً من الشاذ واللحن، وأخذوا عن سكان الحضر، ولما دعتهم الدراسة النحوية إلى انتهاج القياس

---

[14]- سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، ص67.

[15]- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط4، القاهرة: عالم الكتب 1982 ص 393.

من مؤلفات قيّمة ، فكانت الفترة بحق فترة نضج ، ويؤرخ لها بدايةً من أبي عثمان بكر ابن محمد المازني ت248هـ إمام الطبقة السادسة البصرية، ومن أبي وسف يعقوب بن إسحاق السكيت ت248ى إمام الطبقة الرابعة الكوفية، إلى أبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت285هـ إمام الطبقة السابعة البصرية. وأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ت291هـ إمام الطبقة الخامسة الكوفية وأهم ما ميّز هذه المرحلة هو بداية ظهور انفصال الصرف عن النحو، وتقديم صياغة جديدة للنحو على يد المبرد في كتابه المقتضب؛ حيث حاول الخروج عن نمط سيبويه في تعامله مع المادة النحوية. هذا الذي أتاه المبرد يجعلنا نطرح تساؤلاً: هل حدث تطوّر في الدرس النحوي بعد سيبويه؟ كان التطّور النحوي في مجمله منن سيبويه تطوراً ضئيلا مسّ الشكل دون الجوهر. أي: نظام التأليف لا موضوعه، ولم تظهر قضايا جديدة تطرح للمناقشة. وهذا كان في صالح الدراسة السيبويهية التي استمرت إلى أوائل القرن الخامس الهجري محاطة بشيء من التقديس والتهيّب وسوء الفهم أحياناً، إذ بقيت النظرة اللغوية ومادتها التي استنبطها سيبويه من الاستعمالات اللغوية الصحيحة في عصره، بقيت مادة في دراسات لاحقة دون تغيير أو تجديد يذكر على الرغم مما عرف به العصر من إمكانات ومواهب. إذ مثل العصر العباسي في جانبه اللغوي اهتماماً فائقاً باللّغة في معانيها وألفاظها وأساليبها فازداد شيوع المعاني الدقيقة والتصورات الجميلة والأخيلة البديعة[16]. فأصبحت اللّغة تتميّز بالسهولة والمرونة وطغى المزخرف اللفظي وكثرت المحسنات البديعية، فذهب الهمّ إلى انتقاء اللفظ السهلة والتمست الجزالة في ألفاظ القرآن الكريم، وانتشرت الاستعمالات البلاغية.

---

[16] عبد الله بن حمد الخثران، مراحل تطور الدرس النحوي. ص 110-112.

ولكنّه ظهرت مصطلحات العلوم والفنون والإدارة من جهة، ومن جهة أخرى بدأ يطغى استعمال الدخيل في الحياة اليومية وفي كل المجالات. وبذلك انقسمت الفترة الممتدة من سيبويه إلى الزمخشري ت538ش إلى عصر أخذت فيه الدراسات اللغوية أصولها، واهتمت بدراسة الكلمة من حيث الأصل والمعنى والدلالة وفتحت مجالات الدراسات المتخصصة، فأثرى كل ذلك البحث اللغوي الذي استطاع أن ينتج الموسوعات، ولكن فترة الإثراء العلمي لم تكن مفتوحة على إطلاقها، وكأني بعصر الخمول والجمود قد حل لتنام العقوال وتعجز عن الخلق والابتكار ولو باستلهام من أفكار السابقين، فكان البحث اللغوي في مظهره العام اجتراراً لما قيل من باب الشرح والتعليق والتسهيل فكثرت الشروح والتعليقات، وأنجز أبو البركات بن الأنباري ت577د حواشي الإيضاح، وطبق في درسه النحوي منهج القياس الفقهي، وخاصة في كتابيه الإغراب في جدل الإعراب، ولمع الأدلة، وكان هذا القياس الفقهي والفلسفي مما أضر الدراسة النحوية. وأصح النحو بعد ابن الأنباري مجالاً تضيع فيه الجهود وأصبحت الشروح تتلو الشروح، وشروح على الشرح.

قدّم أبو البقاء العكبري ت616هـ شرح الإيضاح، ولخّص التنبيه لابن جني، وله كذلك المنتخب من كتاب المحتسب. وشرح ابن يعيش ت 642 هـ المفصل للزمخشري وكان ما قدّمه أشبه بدائرة معارف ذات ثراء خاص. ولمعت في هذا المجال أسماء كثيرة كان لها أن سجلت إبداعاً خاصاً مثل الزمخشري والرضي وابن الحاجب وابن مالك.

ازدهرت الدراسات النحوية كثيراً في عصر المماليك ولمعت أسماء كانت أعلاماً في عصرها، واستمر أثرها العلمي قروناً بعد ذلك، ومن هؤلاء ابن هشام ت761د صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب؛ حيث قدّم فيه نظرة جديدة إلى النحو، خالف فيها نظرة إمام النحاة في كثير من النواحي. وبابن هشام انبعثت الدراسات النحوية انبعاثاً جديداً، ورغم ذلك تواصلت الشروح والتعليقات قروناً متتالية

لتبلغ القرون المتأخرة؛ حيث نصادف في القرون مثلا الشيخ محمد الدسوقي ت1230هـ بحاشيته الطويلة على المغني، والشيخ حسن العطار ت1250هـ له حاشية مختصرة على شح الأزهرية ولربما عدت حاشية الشيخ محمد الحضري الدمياطي ت1270هـ أهم الشروح بعد ذلك وهي حاشية على ابن عقيل، ومهما نقول عنها فنرى أن بعضها يثن فعلاً القدرة على العطاء الفكري السخي، وبعضها بقي يعيش على الشروح والاجترار البغيض الذي مثل الجمود الفعلي.

وفي العصر الحديث بدأت تظهر تصنيفات في النحو تدعو إلى تيسيره وجعله في متناول المتعلّمين وذلك منذ أنشئت دار العلوم، ومع أوائل القرن الثالث عشر ظهرت بوادر النهضة الحديثة، حيث بدأت الجهود تؤتي ثمارها بعد الرقاد الذي أصاب العلوم عامة في العصر العثماني، حيث ظهرت المؤسسات العلمية في كل من سوريا والقاهرة وبغداد والأردن، ومؤسسات أخرى في كل أقطار الدول العربية كل يخدم جانباً من جوانب الرقي اللغوي ولكن رغم كل ذلك ما تزال الجهود دون الطموحات المعلقة عليها في تقديم مادة لغوية واضحة سهلة مسايرة للعصر دون الانفصال عن الأصالة العربية. ويبقى أهم ما نخلص إليه هو كون الحضارة الإنسانية في كل مظاهرها لا بد أن يمسها الضعف، ولا بدّ لها من عصر قوة، وكنا شأن الدرس اللغوي العربي يتأرجح بين الازدهار والانحدار، وتبرز عظمته في وصول رصيد علمي غزير من عصور غابرة إلى يومنا هذا.